العجائبي في الرواية السودانية " عرس الزين للطيب صالح* أنموذجا"

جبور أم الخير، جامعة وهران 2

الملخص: تتحدث رواية "عرس الزين" عن الاختلاف والرفض للآخر، وثمة عنصر عجائبي يمزق المألوف ضمن السيرورة السردية، فالشخصية قبيحة الشكل وجميلة الروح تحقق لنفسها وللآخرين الكرامات والمعجزات. فالزين البسيط هو الذي يثير دهشة واستغراب أهالي القرية والقراء معا.

وتكشف هذه الشخصية البطلة ضمن تفاعل الأحداث عن قيمة الروح الجماعية والاجتماعية التي تبني وتؤسس لخيرها وخير الآخرين. ومن هنا فالطيب صالح في هذه الرواية طرح رؤيته الفلسفية والفكرية لموضوع الجمال والقبح من منطلق بسيط وبخطاب سردي بسيط.

Abstract: *The marriage of El Zain* is a novel that tells about the difference and rejection of the "other". A "fantastic" element comes to disturb the usual narrative, demarcating this story from the traditional ones. Thus, one notices that the main character is physically ugly but is endowed with a spiritual beauty that positively impacts him and the others.

The humble "El Zain" also provokes the astonishment and surprise of both the villagers and the readers. The personality of this leading character is revealed through the interaction of certain events and shows us the values of the collective and social mind, which can only develop a sense of goodness and beneficence to everybody.

In his novel, the author Taib Salah, exposes his philosophical and intellectual view of the theme of the beautiful and the ugly in a simple discourse.

Résumé: « Le mariage d'El Zain » est un roman qui parle de la différence et du rejet de l'autre. L'élément « fantastique » y interférant, perturbe le mode de narration traditionnelle. Le personnage principal, dont la laideur physique

*الطيب صالح (1929/7/12-2009/2/18) أديب سوداني، عاش في بريطانيا وقطر وفرنسا. يلقب بعبقري الرواية العربية، تحصل على البكالوريوس في العلوم، سافر إلى انجلترا حيث واصل دراسته، وغير تخصصه إلى دراسة الشؤون الدولية السياسية. عمل الطيب صالح في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، وترقى فيها حتى وصل إلى منصب مدير قسم الدراما، ثم هاجر إلى دولة قطر وعمل في وزارة الإعلام، ثم مديرا إقليميا بمنظمة اليونسكو في باريس. من أعماله: موسم الهجرة إلى الشمال- دومة ود حامد- عرس الزين- مريود وغيرها.

n'entrave point la beauté de l'âme, suscite le meilleur non seulement pour sa personne mais aussi pour son entourage. Le modeste El Zain est également un personnage qui provoque l'étonnement et la surprise des villageois et des lecteurs en même temps. La personnalité d'El Zain se révèle à travers l'interaction de certains événements faisant apparaitre ainsi les valeurs de l'esprit collectif et social qui ne peuvent que faire le bien des uns et des autres. Dans ce roman, l'auteur Taib Salah expose sa vision philosophique et intellectuelle du thème du beau et du laid dans un discourt simple.

تجتمع في هذه الرواية للطيب صالح ومن خلال آليات التشخيص الفني والروائي زوايا الواقعي الحقيقي والخيالي العجائبي . فبتوالي صفحاتها يعثر القارئ على عناصر لاواقعية ولاعقلية، تخلق لديه إحساسا بانعدام الفضاء الحقيقي وتؤكد على وجود رواية حداثية. فالرواية تتحدث عن الاختلاف بيننا وبين الآخر، هذا الاختلاف الذي يجعلنا نتدحرج بين القبول والرفض حسب المصلحة وليس لقناعة ما. العجائبي في رواية الزين تكمن في تحول نشاط إنساني بسيط إلى نشاط إبداعي عظيم وقد عرف تودوروف العجائبي بأنه يقوم أساسا على تردد للقارئ – قارئ يتوحد بالشخصية الرئيسية أمام طبيعة حدث غريب.

كما عرف "روجي كايو" العجائبي بقوله: **"فوضى... وتمزيق ناجم عن اقتحام لما هو مخالف للمألوف، وتقريبا غير المحتمل في العالم الحقيقي المألوف (...) إنه قطيعة للانسجام الكوني. إنه المستحيل الآتي إلى الفجأة"**.[1]

فهذا الكاتب يصنف العجائبي مع اللانظام والفوضى التي تعود عليها الإنسان العادي، فهو يؤسس بذلك لثنائيات متباعدة، ولكنها تبقى مفهومة وواضحة أما أعين المتلقي، نراها كالتالي:

- المألوف / المختلف.
- العالم الملموس / العالم المتخيل.
- الحقيقة / اللاحقيقة.

يمتزج في الرواية العجائبية الواقع بالخيال، وينقسم هذا الجنس الأدبي إلى اتجاهين:

- التعجب (الحالة الإيجابية)، ويتم ذلك بعدما يخرج القارئ بانطباع حسن وإيجابي عن القصة وما يشكل بناءها من أحداث وأبطال وأوضح مثال عن ذلك

[1]) نجاح منصوري "سحر العجائبي في رواية "وراء السراب" لابراهيم درغوني، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد الثامن 2012.ص 17

شخصية
"سوبرمان الذي ينقذ حافلة كادت تسقط في النهر".

- الغريب (الحالة السلبية)، والسلبية يتوصل إليها المتلقي بعد تتبع الحكاية اللصيقة بالبطل، فالشخصية الغريبة قد تحول البطل من حالته الطبيعية إلى طبيعة شيطانية أو نلفيه يجمع بين الحالتين.[2]

وللأدب العجائبي مقومات أساسية:

- توظيف حدث استثنائي يثير الدهشة والاستغراب لدى القارئ.
- الابتعاد عن العالم المنطقي وعن القوانين التجريبية المؤكدة.

كما ترى بعض الدراسات أن للعجائبي وظائف متعددة:

- الوظيفة الروحية التي تكشف عن الروح الجماعية للموضوع المقصود.
- الوظيفة الاجتماعية التي يتم من خلالها التحرر من القيود الجماعية المتعارف عليها والتي يتم من خلالها التمرد عن عقلانية الموضوع المشترك بين الجميع.

إن الطيب صالح في رواية "عرس الزين" يعرض ومن خلال البطل الروح الإفريقية الطيبة التي تصنع الفارق وسط بيئة ريفية بسيطة، أين يسيطر القانون العشائري الخاص المختلف والمنغلق على نفسه، هذا القانون الذي يستمد قوته وشرعيته من موروثات فلكلورية ودينية وكذا أسطورية. هو موروث سوداني في صميمه وتفاصيله الدقيقة ولكنه يقارب إلى حد بعيد الموروث الجزائري الذي تمتد جذوره عبر نفحات بقايا التاريخ العربي المشترك.

وكما هو معروف فإن التقنية الجمالية التي انتقاها الكاتب من شأنها أن تجذب انتباه القارئ لموضوع بعيد عن الموت والمآسي، وفي الوقت ذاته أقحم من خلالها قضايا سياسية واجتماعية، فتم التعبير عن الواقع الاجتماعي بما هو فوق طبيعي، هروبا من الرقابة السياسية والدينية.

ولهذا السبب فنرى أن المراجع الأساسية التي اعتمدها "الطيب صالح" في نصه السردي تفصل في النقاط التالية، رغم تشابكها وتداخلها:

- مرجع تراثي وتاريخي عربي ممثلا في شخصية الولي الصالح الذي يحمل من الصلاح والإيمان الداخلي بحيث يُهمل إطاره الخارجي بل يُنسى ولا يلتفت إليه، صاحب كينونة خارجية موجودة وغائبة في الوقت ذاته، ولي متعدد الوجوه (الزين في الزمن الحاضر، الحنين في الزمن الماضي والحاضر وبين القار والمتجول)

[2]) جميل حمداوي، الرواية العربي الفانطاستيكية، مجلة المحور المتمدن، 2006 (الموقع الالكتروني للمجلة)

- مرجع تراثي محلي لصيق بالفضاء السوداني دون غيره وبالقرى البسيطة، من خلال خضوع الشخصية البطلة واستسلامها للناسك " حنين" بحيث لا تبدي أي اعتراض على فعله وقوله، يحمل النبوءة في كلماته، يسعى إلى الإصلاح والصلح بين الأهالي.
- مرجع تاريخي صميم من خلال إشارة السارد إلى حالة العبودية التي كانت موجودة في السودان في القرن العشرين، والتي مثلتها شخصية موسى الأعرج التي استغلت في زمن شبابها وقوتها ثم رميت في زمن شيخوختها.

تختلف رواية "عرس الزين" [3]عن الرواية السابقة للكاتب "موسم الهجرة إلى الشمال" من حيث عدد الصفحات، فعرس الزين تقف بين الرواية والقصة الطويلة، بل إن العديد من النقاد صنفها ضمن النوع الثاني، فهي تصل إلى مائة واثنتي عشرة(112) صفحة. كما أنها بسيطة في أحداثها وتفاصيلها، ولكن هذه البساطة والجزئية القليلة من حيث الكم لا تقلل من قيمتها الفنية. وقد ذكر الكاتب والناقد الانجليزي "أليكس كيجان" بصدد القصة القصيرة، أنها شيء يمكن أن يقرأ في جلسة واحدة. ويمنح القارئ تنويرا مفاجئا وذهنيا مثل شعاع الشمس وهو ينشق وسط غيمة سوداء" فالقصة إذن يشترط فيها الزمن المحدود وتصور أفق انتظار المتلقي، ولكنها شيء لمن يمتلك أدوات الإبداع وقلم كاتب. وقد أضاف هذا الكاتب أنها شيء يمكن قراءته في ساعة، لكنه يثبت في الذاكرة مدى العمر.

تعكس الرواية مضمون عنوانها، فالزين المذكور في العنوان هو بطل هذا العمل السردي، فاهتمام الطيب صالح بالزين كبطل بدأ منذ الغلاف الذي ضم في تشكيل عنوانه مختصر القصة منذ بدايتها إلى نهايتها. فالمتتبع للرواية، يلحظ أنه لا تكاد تخلو صفحة من صفحاتها من ذكر الزين، فهو يشغل أهل قريته التي لا نعرف عنها إلا أنها من قرى السودان المنسية، فلم يحدد لها السارد اسما مميزا أو ملفتا للانتباه، وأقرب تفسير نراه لذلك، أنها تحمل شحنة فضائية عامة وشاملة لكل القرى العربية.فرواية "عرس الزين" في أساسها حكاية تفاعل المجتمع السوداني البسيط مع الأحداث الحياتية العادية والتي تشكل لكينونته واستمراريته. (استمرار القرية بالتكافل واستمرارها بالزواج ولكن استمرارها الأكبر بالأمل الذي تصنعه المعجزات أحيانا.)

إذن يشغل هذا الشاب "الزين" كل أهالي القرية منذ ولادته، فهو مختلف بتصرفاته الغريبة، هذه التصرفات التي تعود إلى أيامه الأولى في الحياة، فقد ولد ضاحكا بخلاف الآخرين، واستمر على هذه الوضعية، لم تفارقه الابتسامة بتوالي سنوات حياته، بل حيثما يشاهده الأهالي يعلمون أن هناك فرح يقام، فهو يحب الأفراح، فيكون أول الوافدين، متجولا بين أهالي الفرح مساعدا و مهنئا، فالشكل الخارجي ساعده على التقرب من النساء فهو لا يمثل خطرا عليهن أما عن شكله ومنظره فتصوير السارد قربه - إلى درجة كبيرة -من بطل

[3]) الطيب صالح، عرس الزين، دار العودة 1988، بيروت

"فيكتور هيغو" الملقب "كاسيميدو" فالزين لم يكن يملك إلا سنين، إحداهما بالفك الأسفل والأخرى بالفك العلوي، كما لم يكن على وجهه شعر إطلاقا، لم تكن له حواجب ولا أجفان. وعرف كذلك برقبة طويلة، فسماه الأطفال بالزرافة. إذن، يوحي لنا شكله العام انطلاقا من وصف السارد بالقبح الظاهر، إضافة إلى ذلك فهو استغنى طيلة حياته عن الحذاء، يسير في الطرقات دونه لأنه كما يصرح وببساطة لا يحبه، فالزين البطل الذي انتقاه السارد ما هو إلا ما يعرف في مجتمعاتنا العربية التي لا تتفق على توصيف موحد، بالبهلول أو الدرويش أو الولي.

"يرى أهل البلد هذه الأعمال من الزين فيزداد عجبهم. لعله نبي الله الخضر لعله ملاك أنزله الله في هيكل آدمي زري, ويقول بعضهم: " يضع سره في أضعف خلقه."[4]

و قد ربط أهل القرية ضمن المضمون السردي ظهور الزين البطل المميز في شبابه بحادث النجم الساطع التي شاهده الولي الصالح "الحنين" والبركة التي سقطت على القرية وأهاليها، فقد توالت المعجزات التي سمعوا عنها في حكايات الأعياد والمجالس، معجزات مست الأرض والسماء والإنسان. ومن بين المعجزات التي رددها أهالي القرية، أن النساء اللواتي يئسن من الإنجاب، رزقن الولد، أما الدواب من غنم وبقر فقد تضاعفت ثروتهما، والنخيل أثمر تمرا لم يشاهد مثله، بل وحتى الثلج تساقط على هذه الأراضي الصحراوية. ولكن أكبر معجزة هي زواج الزين من نعمة .[5]

ولكن إذا تساءلنا عن سبب اختيار الكاتب لهذه النوعية من الأبطال الإشكاليين، نتوصل إلى أن منطلق الطيب صالح، كان فكرة جوهرية اختمرت في دهنه، عن علاقة الجمال بالقبح، هي فكرة طرحها العديد من الفلاسفة وأفاضوا فيها ولم ينجحوا في الاتفاق حولها. فأيهما أهم للإنسان، وهل يمكن أن يجتمع القبح والجمال في شخص واحد كما هو الحال بالنسبة للزين؟ الزين القبيح الذي يحبه الجميع والذي جمع بين بشاعة المظهر وطيبة القلب في مفارقة عجيبة حتى أعتقد أهالي القرية أنه ولي صالح، ولي صالح له كراماته الخاصة التي تحقق ما يشبه المعجزة أو القوة السحرية، فهو شخصية عطوفة على أهالي القرية، خاصة منهم المرضى والمنبوذين، يمد لهم يد العون ويحنو عليهم رغم حاجته وفقره بل هو ضمير القرية الحي الذي لا يتوقف عن العطاء الإنساني، فهو يدرج حسب بعض النقاد ضمن المحور المتحرك والفعال لإصلاح وتقويم أخطاء القرية (تقويم سيف الدين) ورسول للحب والرحمة وكلمة الحق في لحظات الخوف من الظالم.

يقول الكاتب:

---

[4]) نفسه، ص 24، 25.
[5]) نفسه، ص67.

"كان للزين صداقات عديدة من هذا النوع، مع أشخاص يعتبرهم أهل البلد من الشواذ، مثل عشمانة الطرشاء، وموسى الأعرج، وبخيت الذي ولد مشوها، ليست له شفة عليا، جنبه الأيسر مشلول".[6]

ولعل التناقض الذي يلمسه القارئ في شخصية الزين هو جمعه بين العطف والكره، فهو كله عطفا للمستضعفين والمرضى كما أسلفنا، يحنو عليهم دون كلل أو ملل بل هو يكون المبادر لذلك دوما، يسابق التجار وأصحاب الأراضي بل حتى الإمام ولكن كاره لإمام القرية بل يصارح بذلك ولهذه المؤسسة الدينية التي يراها لا تعبر عن الإسلام الحقيقي يقول في الصفحة.82

"ولعل الإمام كان الشخص الوحيد الذي يكرهه الزين، كان مجرد وجوده في مجلس يكفي لإثارته، فيسب ويصرخ ويتعكر مزاجه ويتحمل الإمام في وقار هيجان الزين، ويقول أحيانا إن الناس أفسدوه بمعاملتهم له كأنه شخص شاذ، وان كون الزين ولي صالح حديث خرافة، وأنه لو ربي تربية حسنة لنشأ عاديا كبقية الناس...."[7]

وأبرز قدرة كانت لدى هذا البطل الورقي أنه لا يسارع إلى التلفظ باسم فتاة من فتيات القرية ويجوب البيوت مرددا اسمها، إلا انجرّ عن ذلك تسريع زواجها من رجل تتمناه باقي الفتيات. فهو يشبه ما هو منتشر في بعض القرى الجزائرية، عن قدرة ضريح أو شجرة أو بحر محدد من تحقيق الآمال والأمنيات البعيدة المنال، من زواج وإنجاب وشفاء من مرض.

لقد تنقل الزين في حب بنات القرية الواحدة تلو الأخرى مرددا أسماءهن، حبا بإرادته أو متعمدا ذلك لمعرفته لنتيجة هذا الفعل الغريب الذي اعتبره انجازا يحقق ما هو مستحيل في قرية محافظة، تمنع عن الفتيات الخروج كما تمنع عن الشباب الالتقاء ببنات العائلات المحافظة. يقول الكاتب في الصفحة 12 **"فهو يملك ذوقا رفيعا، فهو لا يحب إلا أروع فتيات البلد جمالا وأحسنهن أدبا وأحلاهن كلاما،"** فهو بعمله هذا ينبه الشبان إلى جمال الفتاة التي يختارها. ولقد تفطنت الأمهات إلى هذه القوة التي أضحى الزين يمتلكها، فعملن على استقباله واستضافته عسى أن ينلن النتيجة نفسها.ينتقي الزين الفتاة المقصودة ويبقى على حالة الحب لشهر أو شهرين وبعد ذلك يسأم وينتقل إلى أخرى ويتحول هائما بها منتظرا الفعل العجائبي مع أهالي القرية.

اعتقد أن الزين وهو يتحول مادحا الفتاة التي وقع في حبها لم يكن صادقا لأنه ترك أجملهن. فكأنه أسس للعبة خاصة وخصوصية بجميع تفاصيل قواعدها ولكنه لم يرغب في أن تنقلب عليه.

---

[6]) نفسه، ص23.
[7]) نفسه، ص 82.

وفي هذه اللعبة الجماعية التي أسس لقواعدها الزين - كما ذكرنا سالفا- والتي منح فيها لنفسه دور الفاعل والمحرك لمشاعر الفتيات والفتيان، نلفي الجزاء التي لحقه لم يكن بتاتا من جنس العمل، فالزين المحب للفتيات والطيب مع الضعفاء يستغل شر استغلال من قبل ولي العروس في كل مرة، فكان يطلب منه انجاز اشق الأعمال وأصعبها.

ولكن في كل هذه المغامرة التي يخوضها الزين، ثمة مفارقة غريبة وعجيبة، فإننا نجد الزين يتحدث عن كل الفتيات في القرية ماعدا فتاة واحدة، وهذه الفتاة كانت من أكثر الفتيات جمالا وأدبا وثراء، وهي نعمة ابنة عمه، الوحيدة التي درست في الكتاب، فارتبطت بسور القرآن الكريم قراءة واقتناعا، وأضحت بذلك في قمة ما يستشعره الشخص من إيمان، تنتظر آملة لحظة تضحية تضاهي تضحيات الأنبياء والصالحين، فمثلا وحينما تفكر في مسألة الزواج، كانت قناعتها تذهب بها إلى التسليم الكلي لمشيئة الله، فالزواج حسبها سيأتيها من حيث لا تدري، فما يقع ببساطة هو قضاء الله وقدر ه على عباده تقريبا كالموت وكسقوط المطر وتفتح الأزهار وكذا تعاقب الليل والنهار . أما عن فارس أحلامها فلم تتحد له ملامح أو مواصفات أو شروط، فهي لم تضع نفسها داخل علبة مغلقة أو سجن ذهبي من الأحلام والطموحات كما تتصرف أغلب الفتيات والتي ربما قد تنتهي بخيبة أمل كبرى.

وكم كانت مفاجأة أهالي القرية حينما تم إعلان زواج الزين من نعمة الفتاة الوحيدة التي لم يتلفظ باسمها، كما وعده الحنين "الولي الصالح الذي يزور القرية بين الحين والآخر. هذه الشخصية التي تم رسم ملامحها بإتقان وضبابية في آن واحد.

فدعيت لهذه المناسبة كل العائلات نساء ورجالا وأطفالا، فعرس الزين لم يكن عاديا، فقد جمع بين جميع الطبقات والأطياف كالفقراء والأغنياء والأصحاء والمرضى والمقيمين والمسافرين وعلت الزغاريد والطبول وأغاني المديح. وفي غمار هذا الجو، اختفى الزين عن الأنظار بل طال غيابه، فخرج أهالي القرية يبحثون عنه في الحقول والبيوت وفي المسجد وتحت كل نخلة وكل شجرة، فوجدوه في المقبرة قرب قبر الحنين يظرف دموعا.

تدرج هذه الرواية وفق التعريف اللغوي إلى دلالات عديدة كالروعة والعظمة والعجب والاندهاش والخيال والوهمي والخارق غير الواقعي. والزين كبطل عجائبي يدرج ضمن عادي إلى ولي صالح له كراماته كائنات بشرية تحولت إلى كائنات فوق بشرية، من بشر على أهالي قريته.و لكن تبقى هذه الرواية العجائبية من حيث البناء وصيرورة الأحداث السردية تقنية جمالية كالأسطورة، تسعى من الصفحة الأولى إلى الكلمة الأخيرة مرورا بالعنوان والغلاف إلى جذب انتباه القارئ إليها. وهي في الوقت ذاته تقوم بعملية انزياح إلى وضع وطرح جديد خارج الرقابة الخارجية، هروبا من أدوات القمع السياسية (الحديث عن العبودية في القرى السودانية) والقمع الدينية (رفض ممثل المؤسسة الدينية).